خـــوذة حمص

للأستاذ هنري سيريغ
تعريب وتلخيص الدكتور حمزة النص

(خلاصة المقال المنشور في القسم الغربي من المجلة)

يعرف كل من زار متحف دمشق تلك الخوذة الفضية الوجه ، المعروضة في خزانة خاصة والتي هي من أنفس ما تتضمنه المجموعة الأثرية السورية .

لقد عثر على هذه التحفة الثمينة بعض سرقة الآثار الدفينة عندما كانوا ينقبون في قبر يقع في الغرب من محطة حمص ، ولكن مديرية الآثار وُفقت لاستعادتها وضمها الى مجموعة آثار الدولة .

وتتألف هذه الخوذة من قسمين : البيضة التي تستر هامة الرأس والنقاب الذي يحمي الوجه ، وكلاهما صنع من حديد ، غير أن النقاب الذي يُمثّل ملامح الوجه هو موشى بالفضة ، أما البيضة فان قَوْنَسها — أي مقدّمها — وعنقها هما فقط مزدانان بالفضة ، وما بقي منها كان مكسواً بنسيج مصبوغ لا تزال آثار خيوطه ظاهرة على صدأ الحديد . ويربط ما بين القسمين مفصل يمكن به رفع وجه الخوذة أي النقاب ؛ فكان صاحب الخوذة عندما يريد لبسها يكشف النقاب ويدخل رأسه في البيضة ثم يشدهما بسيرٍ من الجلد يدخل في حلقة مثبتة بين أسفل الأذن وثقب في مؤخر العنق .

وتبلغ زنة الخوذة ٢ كغ و ٢١٧ غ ، وقد تُرك على وجهها شقان على مستوى العينين وثلاثة ثقوب صغيرة حذاء كل من الجفنين السفليين وفتحات قبالة الفم والمنخرين . وتعليل وجود الثقوب عند الجفنين هو الحرص على أن يكون شقّا العينين ضيّقين ، وبما أن ذلك يمنع الرؤية عن قرب فان ثقوب الجفنين تمكن من خفض البصر وتوجيه القدمين .

إن وزن الخوذة وسمكها وضيق ثقوبها وشقوقها تدل على أنها لم تصنع للزينة والأبّهة وإنما لتقي صاحبها في القتال من ضربات السيوف ووقع النبال . بيد أن ذلك لا يمنع استعمالها للزينة

فهي في وجهها المفضض المصقول وعنقها وقونسها المصنوعين أدق صناعة ترهب الأعداء وتبهر أعين الجماهير .

والمتأمل في هذا الأثر الفذ لا بد وأن تعرض له أسئلة أربعة :

١ — لأيّ استعمال صُنعت خوذة من هذا النوع ؟

٢ — أين ومتى صُنعت ؟

٣ — لمن صُنعت ؟

٤ — هل تدل على الملامح الحقيقية لصاحبها ؟

وليست غايتنا من هذا المقال سوى الاجابة على هذه الأسئلة .

* * *

إن المتاحف الأوربية تضم عدداً كبيراً من الخوذ ذات النقاب التي تشبه في صنعها خوذة متحف دمشق ، ولكنها تقل عنها روعة وإتقاناً . فبدلاً من أن تكون مكسوةً بوذيلة من الفضة نجد أنها مصنوعة من حديد أو برونز عادي في الغالب ومفضض أحياناً . ثم إن الصنعة في تزيينها لا تضاهيها دقة وحذاقة ، وهي تجعلنا نعتقد بأنها إنما كانت تصنع بالجملة للحاجة إليها لا لقيمتها الفنية .

والعلماء الذين عكفوا على دراسة هذه الخوذ قد استندوا في تبيانهم لها الى نص للمؤرّخ الروماني (أريان) ذكر فيه أن فرق الأعوان من فرسان الجيش الروماني كانت تقوم بمباريات يلبس فيها الجنود خوذات ذات قناع ، ويشير المؤرخ نفسه إلى أن التعابير التي كانت متداولة في هذه المباريات تشتمل على كثير من الكلمات السلتية ؛ فيمكن أن نستنتج من ذلك أن عادة المباريات قد عرفها السلتيون قبل أن يأخذ بها الجيش الروماني . ويؤيد هذا الفرض أثران مهمان : أولهما نقدٌ ضربه في اسبانيا القائد الروماني (بوبليوس كاريزيوس) الذي أوفده الأمبراطور أغسطس لمحاربة شعبين سلتيين هنالك ، وذلك في العام الرابع والعشرين قبل الميلاد ، ونجد على هذا النقد نقش خوذة ذات نقاب لا بد وأن يكون كاريزيوس قد اقتبس استعمالها عن الشعوب التي غلبها على أمرها . والأثر الثاني هو تمثال أقدم عهداً شيّده الملك أومن الثاني (١٩٧ — ١٥٩ ق.م) في أحد معابد برغام (آسيا الصغرى) وهو يمثل خوذة ذات نقاب بين الأسلحة التي غنمها الملك المذكور من أعدائه . والمعروف أن هذا الملك إنما اشتهر لتغلبه على شعب سلتي كان هاجم آسيا الصغرى وهو شعب الغالاطيين (أي الغاليين) . وعلى هذا فمن الممكن أن تكون الخوذة المحفورة على الآبدة المذكورة من أسلاب أحد الزعماء السلتيين .

إن خوذة معبد الملك أومن تتميز بأنها متأثرة بصفات الآثار الهيللينية ، فهي دون ريب قد صنعت في برغام لزعيم سلتي . وانتشار استعمال الخوذ السلتية ربما كان في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، وحدث ذلك لدى الشعوب المتصلة بيوناني آسيا . أما في بلاد اليونان نفسها فليس ثمة دليل يؤكد هذا الاستعمال . ولا يبعد أن يكون هذا أيضاً منشأ الخوذ ذات القناع التي يذكر المؤرخون المتأخرون أنها كانت من أسلحة الخيالة الساسانيين .

وسنرى فيما بعد أن خوذة حمص ترجع الى القرن الأول بعد الميلاد ، وأنها معاصرة لأقدم الخوذ المقنعة الوجه المعروفة في الجيش الروماني . فهل يصحّ أن نستنتج من ذلك أنها هي أيضاً قد صنعت لتستخدم في المباريات التي قلّد بها الرومان الشعوب السلتية ؟ نحن لا نعتقد ذلك ، وقد ذكرنا سابقاً ان الخوذ التي كانت لفرق الأعوان في الجيش الروماني إنما كانت تصنع بالجملة ، ولا يُتوخّى في صنعها الدقة والأناقة ، بل المتانة والمقاومة كي تصدّ الضربات الشديدة في المباريات . أما خوذة حمص فهي على النقيض تحفة نفسية ، وهي وإن كانت مثل الخوذ الأخرى في الصلابة فقد تتأثر زينتها ووشيها من الضرب والطعن . وإذا كان صاحب هذه الخوذة الرائعة مضطراً لأن يُعرّضها للخطر في معركة حربية عابرة ، فلا يُعقل أن يجعلها عرضة للتلف في المباريات التي كان مفروضاً على الفرسان أن يقوموا بها دائماً . فمن المحتمل إذن أن تكون خوذة حمص عدةً حقيقية للحرب ، ونفاستها تدل على أن صاحبها لا بد وأن يكون من علية القوم .

✲ ✲ ✲

وليس سهلاً تأريخ هذه الخوذة بالضبط بل بصورة تقريبية . فهي ذات نقش على مؤخر العنق يمثل نبتاً شائكاً ذا ورق وزهر ، ويشبه نقشاً وجد على آنية من الفضة في (هيلدشايم) من ألمانيا واتفق الاخصائيون على أنه يرجع الى النصف الأول من القرن الأول بعد الميلاد . هذا وأن الأشياء المختلفة الأخرى التي عثر عليها في القبر مع خوذة حمص تعود كلها ، على ما يظهر ، الى ذلك العصر : من ذلك خاتمان ذهبيان محفوظان في دمشق ، أحدهما يحمل فصاً من العقيق وتدل صناعته على أنه من العصر المذكور ، وثانيهما عليه صورة نصفية بارزة لملك يرتدي ثياباً يونانية الا أن أقراط أذنيه هي شرقية ، ولأسباب يطول شرحها هنا لا يمكن أن تكون هذه الصورة إلا لأحد ملوك حمص في ذلك العهد .

ثم أننا نجد الى جانب القبر الذي أخرجت منه الخوذة قبرين آخرين يحتويان على نقود

مؤرخة من العام الخامس قبل الميلاد والرابع عشر بعد الميلاد ؛ فالمقبرة إذن تدعم الأدلة التي أوردناها .

أما موضع صنع الخوذة فهو أيضاً لا يمكن تعيينه إلا تخميناً . وقد ذكرنا أن الزخرف المنقوش على رقبة الخوذة يماثل تمام المماثلة نقش قصعة فضية وجدت في (هيلدشايم) . بيد أن هذا النقش الأخير يتضمن إضافة لا وجود لها على خوذة حمص ، وهي طليعة من الحيوانات تبدو كأنها خارجة من أزاهير الغصن . وهذه الصورة الغريبة تتكرر بشكل خاص في النقوش التي تزين المعابد السورية ، فمن الجائز والمعقول إذن أن تكون سوريا هي المبدعة لها . وعلى ذلك فان أقرب الفروض احتمالاً هو القول بأن خوذة حمص قد صنعت في البلاد السورية . وإنّ الاحكام الفائق في صنع هذه الغرّة الفريدة يجعلنا نميل الى الظن بأنها من إخراج معامل انطاكية ، حيث نشأت قبل ثلاثة قرون صناعات بالغة في الترف بفضل الملوك السلوقيين . فاذا صح هذا يبدو طبيعياً أن يوصي رجل له مكانة سامية في حمص بأن تصنع له حلة فاخرة في انطاكية .

* * *

إن القبر الذي وجدت فيه الخوذة لا يحوي أية كتابة يمكن بها معرفة صاحبه . ونستطيع مع ذلك الادلاء ببعض آراء محتملة الصحة تتصل بهذا الرجل .

لقد كان يحكم مدينة حمص ومنطقتها في حوالي القرن الأول للميلاد أسرة عربية متأثرة بالحضارة الهيللينية . ويروي التاريخ أن أحد أفراد هذه الأسرة — وهو غايوس يوليوس سامبسيجيراموس — قد دفن — في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي — في ضريح فخم ظل قائماً الى خمسين سنة خلت بالقرب من محطة حمص . فيظهر أن المقبرة المتاخمة لمحطة حمص الحالية كان يوارى فيها الأثرياء والعظماء إن لم تكن خاصة بالأسرة الحاكمة . فهل صاحب الخوذة هو ملك حمص نفسه ؟ اننا لا نظن ذلك ؛ فقد رأينا أن صاحب الخوذة كان يختم بخاتم عليه صورة الملك . ونحن نعرف مثلاً أن الامبراطور كلود كان يوزع الخواتم المنقوشة بصورته على الكبراء والأعيان الذين يسمح لهم بالدخول عليه دون استئذان . فصاحب الخوذة المرصعة بالفضة كان إذن قائداً عسكرياً وصديقاً للملك ، ولعله أحد أمراء الأسرة المالكة المكلفين بمهام عسكرية .

* * *

بقي أن نتساءل عما إذا كانت خوذة حمص قد خلّدت لنا صورة هذا الرجل الخطير ؟ لا ريب أن كثيراً من أجزاء الوجه البارزة على النقاب لا تدل على شخص معيّن ، كالحاجبين والذقن وشقوق العينين ؛ ولكن بعض التقاطيع الأخرى تجعل للوجه ملامح شخصية غاية في الوضوح . فالأنف فيه شمم وارتفاع وهو قليل النتوء الا أنه كثيف وافر اللحم . والخدان بارزا الوجنات مع انخفاض نحو أسفل الوجه . ولا يمكن أن تعزى هذه الأوصاف الى النقل عن نموذج مألوف ، شأن الخوذ الأخرى ، ولا الى نقص في مهارة الصانع ؛ بل نحن أميل الى الاعتقاد بأن الصانع قد حاول أن ينقل قدر المستطاع ملامح صاحب الخوذة .

فليس علينا من حرج اذن ، حين ننظر الى خوذة متحف دمشق ، بأن نفكر أنها تمثل لنا ذكرى صورة أصيلة لأمير عربي قديم من حمص .

